مفهوم الهوية من خلال قراءة في كتاب:

"منابع الذات:تكوّن الهوية الحديثة " - تشارلز تايلر*-

إعداد : د.علي تتيات.
جامعة محمد خيضر-بسكرة-

شارلز تايلور(Charles McArthur Ghankay Taylor) [1948-] فيلسوف وسياسي كندي من **كيبيك**، أيضاً، لذا يتحدث عن الهوية من وجهة نظر الأقليات في الغرب، ومهتم بالخصوصيات وعدم ذوبان الأقلية في الأكثرية **كيبيك** مقاطعة فرنسية داخل كندا سعت للانفصال عن كندا، ولم تنجح في ذلك، الحكم فيها فيدرالي ولذا تتمتع بخصوصيتها الفرنسية ضمن دولة انجليزية فلسفة **تايلور** أو مقاربته توفيقية بين الليبراليين والجماعتيين الليبراليين يؤمنون بالفردانية والتعددية والحريات السياسية والجماعتيين يؤمنون بالمقومات الاجتماعية و وحدة الانسان العضوية بالطبيعة، و تايلور أقرب للجماعتيين .والجماعتيين ترجمة لـ(Communitarianism) *.

انتقد **تايلور** المنهجية المستخدمة في مباحث علوم الإنسان (علم النفس، علم الاجتماع الخ)وهي نقل نموذج العلوم الطبيعية التفسيرية والسببية إلى علوم الإنسان، ويرى أنها عمقت جهل الإنسان بالإنسان، لتكريسها الثنائيات الميكانيكية للإنسان وإهدارها لتعدديته التكوينية وقصديات فعله وغائيات نشاطه. مراحل تكون الهوية الحديثة لدى **تايلور** :

التأليهية: التأليهية الأولى (تحالف الإيمان والحياة) والثانية (تحالف الإيمان والطبيعة) ثم العقلانية ثم الرومانطيقية .يرى **تايلور** بأن العقلانية انقلبت على قيمها الديمقراطية المناهضة للاستبداد ومتحولة إلى ممارسة دوغمائية ونسقية مرعبة بعد تحالفها مع أشكال الهيمنة المعاصرة، وهي التقنية والاقتصاد والسياسة.

إشكالية الهوية الحديثة بسبب الانقطاع عن العالم القديم وفكرة الاستقلالية الفردية المنتمية للحداثة، والاستقلالية الفردية تمثل روح الهوية الحديثة، و **تايلور** يرفض اختزالها في التحرر الاعتباطي ويرى قدرتها على التوافق مع **إتيقا** المسؤولية، وان انفصالهما هو سبب التوتر.

تايلور يبحث عن القواسم المشتركة بين نموذج الاستقلالية الفردية و بين المسيحية المتسامحة الخالية

من وسائل الإرغام ويبحث عن القواسم المشتركة بين النموذجين.

من الجدير بالذكر إن كتاب **تايلور** (Sources of the self) صدرت له ترجمة عربية من المنظمة العربية للترجمة هذا العام بعنوان منابع الذات، وهناك من يفضل ترجمته بـ مصادر الذات .وهي أول ترجمة عربية للكتاب. واستغرق تأليفه سنوات، من أهم الكتب الصادرة عن مفهوم تشكل الهوية الحديثة، وهو رحلة تحمل القارئ بين طيات الكتابات التي تمحورت حول هذا الموضوع، والتي حاول فيها **تايلور** ربط تاريخ الهوية بكتاباتها، ووصف مجموع الأفهام لما هو إنساني: الأحاسيس الباطنية، الحرية، الفردية، الانغماس في الطبيعة، وتقديم صورة للهوية الحديثة المتطورة؛ إذ تمثلت معالجته في الجمع بين ما هو تحليلي وما هو تاريخي ذو تسلسل زمني،بغية رسم روابط بين معاني الذات ورؤى أخلاقية، بين الهوية والخير، وبالتالي سرد قصة نشوء الهوية الحديثة في نسق مترابط بين الماضي والحاضر.

كيف تتشكل المثل العليا للهوية؟ وما هي المثل التي ساعدت على تشكل هوياتنا؟

وقد أراد **تايلور** أيضاً من خلال نظرية المعرفة والفلسفة اللغوية تبيان كيف تتشكل المثل العليا للهوية؟ وما هي المثل التي ساعدت على تشكل هوياتنا؟ السؤال الذي يعد نقطة بداية لفهم الحداثة وفهم التحولات الخطرة في الثقافة والمجتمع خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ووضعها تحت المجهر، انطلاقاً من فهم الذات، وكما قال الكاتب في مقدمة كتابه: "فنحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا من دون أن نفهم هذا التاريخ."

ين مفكرين ينظرون إلى منجزات الغرب كتحقيق سامي ويفرحون لذلك، وبين آخرون يظهرون صورة الانحدار والخسران، يقف الكاتب موقف الداعي لتمييز بين الجمع الفريد بين "العظمة" و"الخطر" وبين النبالة والتعاسة، فما يميز العصر الحديث كما يرى تايلر هو تعقيد وثراء الهوية، معناه" أن نفهم أولا، مقدار ما نحن متغلغلون فيها، رغم كل محاولاتنا الرامية لنبذها، وثانياً، مقدار ما هي أحكامنا الأحادية، التي نتقاذفها حولها، منحلة ومنحازة ."

كيف نشأ وتطور الفهم الحديث للذات من صور سابقة للهوية الإنسانية؟ سؤال محوري سيمكننا، كما جاء على لسان **تايلور**، من معرفة ثراء وتعقد الهوية الحديثة، وهو الطرح الذي يقدمه الكتاب مركزاً

على ثلاثة مظاهر، الأول، الجوهر الداخلي الحديث أي شعورنا بأنفسنا بأننا كائنات لها أعماق داخلية وبأننا "ذوات" ، وهو المقاربة التي انبعثت من فلسفة أوغسطين إلى كل من ديكارت ومونتين إلى يومنا هذا، والمظهر الثاني التأكيد على الحياة العادية التي نشأت من الحقبة الزمنية الأولى، والتي انطلقت من حركة الإصلاح الديني مروراً بعصر التنوير إلى أشكاله المعاصرة، والمظهر الثالث الذي يطرح الفكرة التعبيرية عن الطبيعة بوصفها مصدراً أخلاقياً داخلياً، والذي بدأ من أواخر القرن الثامن عشر، وامتدت ويرى **تايلور** أنه ففي حين أن الفلاسفة الأخلاقيين السائدين اليوم يلقون ظلا من الغموض على مفهوم الخير عندما نتحدث عن الهوية، فإن للخير أكثر من معنى واحد في نظرتنا الأخلاقية وفي الحياة، مما يستدعي تقديم صورة عن العلاقة بين الذات والأخلاق، والتي لم يكتف الكاتب الأمريكي بافتتاح الكتاب بقسم يعرض فيه هذه القضية، بل اعتمدها في مجمله. تجلياته في القرن العشرين.

ويقسم كتاب "منابع الذات (أو مصادر) تكون الهوية الحديثة"، إلى خمسة أجزاء، ويتطرق الجزء الأول إلى الهوية والخير، حيث حاول الكاتب من خلاله سبر أغوار هذا المفهوم ومكوناته، حيث يرى أنه غالباً ما نقف أمام صعوبات للحصول على صورة واضحة عن الخير وعلاقته بالهوية، مما يتطلب فهم كيفية نشوء تصوراتنا للخير، "فالذات والخير، الذات والأخلاق هما موضوعان مترابطان لا فكاك منهما"، كما قال **تايلور**.

كما أن الفلسفة الأخلاقية في معالجتها للخير جنَحت بالأساس إلى التركيز على ما يكون فعله صحيحاً، وليس على ما يكون خيراً، وعلى تعريف مضمون الواجب وليس على طبيعة حياة الخير.

ويسعى **تايلور** من خلال القسم الأول إلى استعادة أنماط من التفكير والوصف. وبهذا الصدد يقول: "ما أريد أن أبرزه يتمثل في اللغات الخلفية التي نضع فيها الأساس وفكرة الواجبات الأخلاقية اللذين نعترف بهما، وبشكل أوسع، أريد أن أظهر الصورة الخلفية لطبيعتنا الروحية والأزمة المؤلمة التي تقع خلف بعض الحدوس الأخلاقية والروحية عند معاصرينا ."

ويرى **تايلور** أن الأخلاقية التي تتصف بالعمق والقوة، والشمولية، هي عميقة لدرجة دفعتنا إلى اعتبارها متجذرة في الغريزة، خلافاً للحدوس التي تبدو بمقدار كبير نتاجاً للتربية والتعليم، وهي ضميرنا الطبيعي الذي يقضي بعدم قتل الآخر أو أذيته.

كيف نشأ وتطور الفهم الحديث للذات من صور سابقة للهوية الإنسانية؟

ويدور الجزء الثاني حول معنى الجوهر الداخلي وتطوره، خاصة في علاقته بالذات التي يميز فيها الكاتب بين ما هو داخلي وخارجي، فاللاوعي بالنسبة لنا كأفراد هو عنصر داخلي يحوي مشاعرنا وما نحسه اتجاه العالم، فنحن مخلوقات ذات أعماق داخلية لها دواخل مظلمة.

ولفهم معنى الجوهر الداخلي وتطوره تطرق **تايلور** في الجزء الثاني من كتابه إلى مفاهيم، مثل السيطرة الذاتية عند **أفلاطون**، الإنسان الداخلي، العقل المتحرر عند **ديكارت**، الذات الدقيقة عند **لوك**، سير "الحالة الإنسانية"، استطراد في الشرح التاريخي.

ويعالج القسم الثالث نشوء الأفكار الحديثة عن الطبيعة، وجذورها أو فيما سماه الكاتب بالتأكيد على الحياة العادية. التعبير الذي أبدع فيه **تايلور** لكي يصف المظاهر الإنسانية الخاصة بالإنتاج وبإعادة الإنتاج، أي العمل وصنع الأشياء الأزمة للحياة. وقد اعتمد الكاتب اللئندي على موقف **أرسطو** لتبيان غايات الاجتماع السياسي، التي تشمل رغبتنا فيما نحتاج أن نَفعّله للاستمرار في الحياة ولتجديدها. وينقسم هذا الجزء إلى مجموعة من الفصول تدور حول نفس الموضوع.

ويطرح القسم الرابع المعنون بـ" الصوت الطبيعة" أسئلة جوهرية حول العلّية التاريخية، وحول نشوء الثقافة التي يرى **تايلور** أن نشوءها يعود إلى الممارسات الاقتصادية، والبنى والطرق الإدارية، والأنظمة التهذيبية التي يقول فيها " إن نجاح الثيولوجيات الجديدة والفلسفة الرواقية المتجددة، ذاته، في إدخال نظام مستقر في حياة أوساط مهمة في المجتمع الأوروبي مع التغيرات والتحولات إلى ممارسات اقتصادية وإدارية فعالة".

أما القسم الخامس والأخير الذي خصصه **تايلور** للغات المصقولة، فقد حاول فيه الكاتب الغوص في غمار التنوير انطلاقاً من المذهب الرومنطيقي والمعاصرون الفيكتوريون، كما عالج رؤى العصر ما

بعد الرومانطيقي مبرزاً أهمية واستمرارية فكرة الخيال المبدع في الثقافة الحديثة انطلاقاً من الحقبة الرومنطيقية.

واختتم **تايلور** كتابه بخاتمة حول نزاعات الحداثة، إذ حاول ربط كل ما سبق ذكره بالحداثة وإدخاله في صورة الهوية الحديثة. وقد تطرق للنزاعات الحداثة في ظل النزاع الثقافي في الغرب حول أنماط التفكير والعمل المتحرر والنفعي التي شددت قبضتها على الحياة الحديثة.

قصارى القول، بعد أن ناقش **تايلور** الواقع الذي تمخض عن جهودٍ بحثية حثيثة لتحديد السبل الجيدة لعزل الأنانية في الحداثة عن المسارات المجتمعية الجيدة، وبعد أن قدم تعريفات وناقش آراء استطلعها فيما كُتب عن الذات ومنابعها وفلسفتها، تمكن من أن يجد بينها الحياة العادية التي تتّسم بعناصرها الجمالية الأساسية وقيمها الحاسمة، كما تمكن من التميز بين مفاهيم عديدة أهمها الحضارة والثقافة، ليحصرها تارة في الدين ومرة بضرورات تطور المجتمع، فيصل إلى التركز على المبادئ والمعايير الدينية وعلاقتها بالنظريات الأخلاقية.

---

*

* الكتاب صادر عن المنظمة العربي للترجمة.قام بترجمته د.حيدر حاج إسماعيل. يقع في 865 صفحة.
** نظرية تتناول الشخص من حيث هو عضو في جماعة.